الشاعر رابندرانات طاغور

وتكريمهُ في القاهرة

سنة ١٩١٣ اعطيت جائزة نوبل في الآداب لهذا الشاعر الهندي وهي اول جائزة من جوائز نوبل اعطيت لشرقي

والرجل من بيت علم وفضل اشتهر منهُ رجال في الآداب والفنون والاصلاح الديني والاعمال الخيرية . ومنهُ المهرجا بهارد السر بردوبوت كومار طاغور الذي انشأ استاذية علم الحقوق في جامعة كلكتا واوقف المال لنفقاتها . وكان جد رابندرانات المترجَم تاجراً كبيراً ومصلحاً كثير المبرات حتى لقبهُ ابناء وطنهِ البرنس طاغور . واقتفى ابنهُ والد المترجم خطواتهِ ورزق سبعة ابناء انقطع اكبرهم للفلسفة وانتظم الثاني في خدمة الحكومة واشتغل الثالث بالموسيقى . والمترجم اصغرهم وقد ولد سنة ١٨٦١ وجاء البلاد الانكليز لدرس الحقوق وعاد الى الهند فانشأ فيها مدرسة على نفقتهِ سماها دار السلام ولما اعطي جائزة نوبل وهي ثمانية آلاف جنيه وهبها لهذه المدرسة

ولهُ مصنفات كثيرة نظماً ونثراً ذكرت الانسكلوبيذيا البريطانية سبعة عشر كتاباً مما ترجم منها الى الانكليزية وطبع فيها بين سنة ١٩١٣ و١٩٢١

وقد زار اوربا مراراً وزار الولايات المتحدة ايضاً وعلّم ابنهُ في جامعة كليفورنيا . ومنحتهُ الحكومة الانكليزية رتبة فارس مع لقب سر سنة ١٩١٥ لكنهُ كتب الى حاكم الهند سنة ١٩١٩ يستعفي من هذا اللقب احتجاجاً على الاساليب التي استعملتها الحكومة لقمع الاضطرابات في البنجاب . وهو يحسن الانكليزية كاحد ابنائها اذا سمعتهُ يتكلم وانت لا تراهُ ظننت المتكلم فتاة من ارقى الفتيات الانكليزيات وارقهنَّ صوتاً

ولما قدم مصر في ٢٧ نوفمبر الماضي أستقبل في الاسكندرية وخطب فيها خطبة بليغة عن السلام الروحي في جمهور من العلماء والادباء ثم قدم القاهرة يوم الاثنين في ٢٩ نوفمبر فاقام لهُ شاعر مصر احمد شوقي بك حفلة شاي فاخرة في دار (كرمة بن هاني) بالجيزة حضرها اعيان مصر وعظماؤها ورجال العلم والادب والصحافة فيها يتقدمهم دولة سعد زغلول باشا رئيس مجلس النواب ودولة عدلي يكن باشا رئيس الوزارة . وفي المساء خطب في تياترو حديقة الازبكية خطبة وصفناها وخلصناها في المنتظم كما يأتي :

الشاعر الهندي رابندرانات طاغور

مقتطف يناير ١٩٢٧

امام الصفحة ٣٤

خطبته في تياترو الازبكية

جلال الشيخوخة ووقار المشيب في بساطة الاطفال ووداعة الحملان . وحدة العاطفة متأججة يلطفها ويملك عنانها عقل الحكيم وتأمل الفيلسوف . وتصور الشاعر يستنزل الوحي من سماء الخيال ويستمد الالهام من اعماق النفس ويجلوهما للسامع في كلمات واشارات تحس بالاخلاص يتمشى في كل نبرة من نبراتها . اضف الى ذلك انشاداً يميل بك بين عذوبة النسيم اللطيف يهب على ازهار الحقول يداعبها ، وثوران العاصفة تقيم الامواج وتقعدها وتقتلع الاشجار وتذريها — كل ذلك مما صورة مصغرة لطاغور وقد جلس ليلة امس يخطب فينا عن فلسفة الهند الشائعة بين أبنائها و ينشد لنا من قصائده وأناشيد بلاده في البنغالية لغتها الاصلية والانكليزية التي ترجمت اليها — حقاً لقد أثبت لنا صحة ما قاله كارليل في كتابه « الابطال » عند الكلام على الشاعر وهو ان الشعر الحقيقي انشودة النفس — الشعر الحقيقي يجب ان يكون موسيقياً في الفكر الذي يجلوه والعاطفة التي يرسمها ثم في اللفظ الذي يبرز فيه وعلى ذلك فاشعار طاغور قطع من الموسيقى العالية في معناها ومبناها

***

ما انتصف الساعة العاشرة حتى غص تياترو حديقة الازبكية بجمهور المعجبين بطاغور وشعره و بينهم عدد كبير من الاجانب رجالاً ونساء وجلس على المنبر رجال الصحافة العربية والافرنجية ثم اقبل الشاعر والى جانبه الاستاذ احمد لطفي السيد بك مدير الجامعة المصرية فوقف الجمهور تكبيراً وصفق تهليلاً لقيام الشاعر تحية قومه المألوفة بضم كفيه ورفعهما الى امام وجهه . وما استقر بالجمع المقام حتى وقف احمد لطفي السيد بك وقدم الشاعر بعبارات موجزة مختارة ختمها بقوله « ولا عجب ان نكرم طاغور لانه جرى في حياته على سنن افلاطون وورع عمر بن الخطاب وهدي تولستوي » ثم اقبلت فتاة هندية ومعها اكليل من الورد طوقت به جيد الشاعر

فوقف طاغور وشكر للجمهور المصري ما حفه به من الاكرام منذ ما وطئت قدماه أرض النيل واستأذن في ان يخطب فيه جالساً لانه ليس محاضراً بالمرانة ولا بالصناعة وكل ما يستطيعه هو ان يناجي نفسه والوقوف يتعب النفس و يقطع عليها نجواها

وقال انه ليس فيلسوفاً بالمعنى المتعارف وليست الفلسفة سوى ناحية صغيرة من نواحي شخصيته وحياته وان له شيئاً من الفلسفة في اشعاره لا ينزل بها الى درك المذاهب

الفلسفية التي تفقدها روحها الفنائية ولكنهُ كأحد الهنود له فلسفة قومهِ وهي فلسفة الشاعر اذ عندها تلتقي الفلسفة بالشعر

ثم قال ان فلسفة قومهِ ليست فلسفة كتاريخ كما يظن بعض الغربيين، لانهم لا يتبعون حقائق الكون المعروفة كأنها ثابتة او نهائية . فاذا صدقنا قول الغربيين قلنا ان الصوص في داخل البيضة تتشاءم لان فطرتهُ تدفعهُ الى عدم الاكتفاء بعالمهِ الذي يعرفهُ فيشق القشرة حتى يطلَّ منها على عالم لا يعرفهُ . ان الهنود يؤمنون بشيء ثابت لانهائي مع الوحدة الروحية وهي سر الوجود وفيها يبغون ان يجدوا حريتهم وحقيقتهم الازلية — وهذا الامر مقدور للنفس البشرية

يقول الغربيون اننا متصوفون وعلى ثغورهم بسمة ازدراء على ان اغنية من اغانينا القومية التي ينشدها الفلاح في حقلهِ والصياد في قاربهِ تحدد غاية هذه الفلسفة الصوفية — انهم ينشدون « ماذا جنيت حتى حُكم عليَّ بان اسكن في سجن من الحقائق » ويراد بالحقائق الامور التي يكشفها البحث وتتغير من عصر الى عصر بتغير الباحثين واساليب التفكير — انهم يريدون ان يتحرروا من هذه الحقائق ليطلبوا الحق الازلي — فغاية فلسفتنا البحث عن هذه الحرية في سر الكون المطلق — في الحقيقة الازلية

واستشهد على ذلك بقولهِ ان الغاية من الفنون والآداب هي اظهار هذه الحقيقة وجعلها واضحة ملموسة حتى تجعلنا نحس بها . انظر صورة عجوز دميمة فتعجب بها ليس لان العجوز جميلة تستحق الاعجاب بل لان جمال الصورة يقوم في ان المصور عرف كيف يصور امرأة على حقيقتها فاثارت هذه الحقيقة في نفوسنا معاني الاعجاب . فالجمال اذاً في الحقيقة . والشعور عليها يجعلنا احراراً (وهذا على حد ما قال المسيح في الانجيل و « تعرفون الحق والحق يحرركم ») وشخصية الانسان هي اول حقيقة يجب ان يعرفها ، والحب يظهرها لنا باجلى مظاهرها لذلك نسعد بالحب . قد لا يكون من نحبُّ شخصاً جميلاً او مفيداً او صالحاً ولكن حقيقتهُ ثابتة لنا فلا نستطيع ان نصرف نظرنا عنهُ — وهذه هي الحرية الحقيقية — الحرية التي تقوم على معرفة حقيقة ثابتة كحقيقة وجودنا . ولذلك يحبُّ الوالد ابنهُ لانهُ يرى فيهِ صورة من نفسهِ . يرى فيهِ ذاتيتهُ وقد اتسعت واتخذت شكلاً جديداً . ولذلك نجد نفوسنا احراراً في جماعة من الاصحاب والاحباب وغير احرار بل مقيدين بانواع القيود حينما نكون في جماعة من الاغراب

وعمل الآداب والفنون هو جلاء هذه الحقيقة في كل ما يحيط بنا فنال بجلائها حريتنا

وكما ان للصوص في البيضة فطرة مبهمة تدفعهُ لاكتناه العالم الذي يحيط بقشرتهِ هكذا في النفس البشرية قوة مبهمة تدفعها لتفهم الاسرار المحيطة بالامور التي يجلوها لنا يوماً فيوماً ، تدفعها الى طلب الحقيقة الازلية التي تجد فيها حريتها المطلقة ولذلك نرى الهنود يشعرون ان الله حقيقة لانهُ يمثل المبادئ والاسرار التي تجول في النفس

وما زال على هذا النمط يفصل رأيهُ ورأي قومهِ الفلسفي مستشهداً على ذلك باغانيهم القومية حتى انتصفت الساعة الحادية عشرة ثم نهض وجعل يقرأ منتخبات من اشعارهِ بالانكليزية اولاً ثم بالبنغالية لغتها الاصلية حتى تظهر روعة نظمها وما فيها من موسيقى سامية وكان حين قراءتهِ لها بالبنغالية ينشدها انشاداً بصوت رخيم فقابلها السامعون بالتصفيق الشديد

تكريمه في فندق شبرد

وتألفت لجنة في مصر لتكريمهِ يرأسها معالي وزير المعارف فاقامت لهُ حفلة شاي في فندق شبرد في الساعة الرابعة من يوم الاربعاء اول دسمبر خطب فيها وزير المعارف والشاعر طاغور

خطبة وزير المعارف

اسمحوا لي ايها السادة وقد اوليتموني شرف رآسة هذه الحفلة ان احيي حكيم الهند العظيم وضيف مصر الكريم السيد رابندرانات طاغور وان اعرب لهُ عن اغتباطنا بزيارتهِ لبلادنا هذه الزيارة التي اتاحت لكم ان تسمعوا خطابهُ النفيس الذي القاهُ امس الاول فسحر بقوة تعبيرهِ السامعين اكثر من ساعة وجمع افكارهم تحت تأثير ما احتواهُ من فلسفة الهند وحكمتهِ وما رتلهُ باللغة البنغالية من مقطوعات شعرهِ العالي

وليست هذه اول مرة يوفقني الحظ فيها الى رؤيتهِ فقد حضرت لهُ خطاباً القاهُ في قاعة الحفلات بجامعة جنيف في ربيع سنة ١٩٢١ أسمعنا فيهِ (رسالة الغابة) الشهيرة التي هي من احسن ما اخرجتهُ آداب الهند ثم بعض قطع من (سدهنا) الحافلة بالحكم البالغة وكان تأثير ذلك الخطاب في سامعيهِ مثل التأثير الحسن الذي كان خطابهِ امس الاول — تأثيراً شاركتهم فيه وزاد عليهِ ما شعرت بهِ من الفخر عند ما رأيت الحفاوة والاجلال اللذين قوبل بهما هذا الشاعر الشرقي في اوروبا

اني لا اظنع ايها السادة في ان احدثكم عن الشاعر الكاتب الذي تُرجم جزء كبير من مؤلفاتهِ ودواوينهِ الشعرية الى عدة لغات اجنبية — ولا عن المفكر الديني والصوفي

الحديث الذي ورد الحكمة من منهلها الصافي في كتب الهند المقدسة ، ولا عن الوطني الذي ارتسم في قلبهِ حب امتهِ الكبيرة فاخذ على نفسهِ ان يرسم لها طريق النهضة والتقدم لان كل واحد من هذه الوجوه يحتاج الى شرح طويل لا يسمح بهِ هذا المقام

ولكني لا يسعني الاَّ ان اقول كلمة موجزة عن هـذا المربي الذي حمل نفسهُ الم الاغتراب ومتاعب السفر البعيد وهو في سن تحتاج الى الراحة ليجمع المال الذي يستعين بهِ على مواصلة التعليم في مدرسة santiniketan التي انشأها

انشأ هذه المدرسة وهو في سن الاربعين ولم يكن عارفوهُ يتوقعون ان يقدم على انشاء مدرسة وهو الشاعر المفكر الذي عاش بعيداً عن الحياة العملية يكتب في الادب و ينظم الشعر

ولم تكن لهُ خبرة بامر التعليم وهو ما يعترف بهِ حيث يقول في احدى محاضراتهِ : (قلت لكم اني عند ما انشأت هذه المدرسة لم تكن لي أية خبرة بالتعليم ولكنني في الواقع اكتسبت منذ ذلك خبرة سلبية عرفت بها ما يجب الاَّ يعامل بهِ الطفل وهو ما كان موضوع آلامي وكنت اتألم خصوصاً مدة الطفولة من شعوري بان التربية التي كنت اربى على نظامها في المدرسة لا صلة لها بالعالم)

فالفكرة الاساسية التي بني عليها نظام التعليم في مدرستهِ هي تحبيب الطبيعة الى الطفل واستبقاء الصلة بالدراسة بينهُ و بين الوسط الذي يعيش فيهِ

وليس نجاح هذه المدرسة سببهُ الفكرة الاساسية التي بني عليها نظام التعليم فقط ولكن حبهُ للطفل وميلهُ الشديد الى خدمة امتهِ بل الانسانية من هذه الطريق دفعاهُ الى تخصيص اكبر جزء من وقتهِ لتحقيق هذا المقصد السامي

قلت لحضراتكم ان السيد طاغور زار اوربا وكانت زيارتهُ عقب الحرب العالمية التي صبغت ارضها بدماء الملايين من الرجال ودمرت جزءاً كبيراً من كنوز الفنون والمعارف التي ادخرتها المدنية في مئات السنين فكان رسول سلام يدعو الى حب الانسانية واحترام الانسان لاخيهِ الانسان . كان يبشر في اوربا المسيحية بهذه المبادئ السامية التي كان يبشر بها عيسى عليهِ السلام

وكان يسعى ايضاً الى التقريب بين الشرق والغرب . فمصر وهي من الشرق ومن اقرب بلدانهِ الى الغرب يسرها عظيم السرور ان تكون على صلة عملية بالهند وان تكون احدى حلقات ذلك الاتصال الشرقي الغربي

هذه امنية يسرني ان الفرصة اتاحت لي ابداءها امام ضيفنا الكريم وارجو ان تتحقق في منفعة العالم الانساني جميعه

وقبل ان اختم كلمتي اكرر التحية للشاعر الكبير الذي كنا نتمنى ان تكون اقامته بمصر اطول من هذه الزيارة القصيرة وارجو له سفراً سعيداً وعوداً الى وطنه محموداً

(وقد طلب الشاعر الهندي نسخة من خطبة معالي الوزير بالعربية وترجمتها الانكليزية التي تليت بعدها فطبعت الخطبتان وارسلت اليه نسخ منهما)

و بعد تمام تلاوتها قام الكاتب الخطيب الاستاذ توفيق بك دياب فالقى ترجمة رقيقة لها ثم وقف طاغور والقى كلمة بالانكليزية هذه خلاصتها

خطبة طاغور

سيداتي وسادتي : اشكر صديقي وزير المعارف واشكركم على هذه الحفاوة . وآسف ان لا استطيع الكلام بينكم بلغتي القومية كما تكلم صديقي فمن العسير ان يؤدي الانسان ما في اعماق عواطفه بغير لغة اهله

اذكر اني لما سافرت الى الصين احتفل بي اهلها . ومما سرني ان اوضاع الحفلة قضت بأن يلبسوني ملابس سفراء الصين وان يقيموا عيد ميلادي وان يقيدوني شاعراً صينياً ذلك بأني وان كان مولدي بالهند ولغتي غير لغة الصينيين فقد سبقتني كتبي وسبقني شعري اليهم . واشعر الآن بينكم وقد قرأ كثير منكم كتبي مترجمة اني استطيع ان اعتبر نفسي شاعراً مصرياً ايضاً . ولقد وفقت في سياحاتي اكثر مما وفق غيري فزرت كثيراً من ممالك الشرق والغرب لم تتم لكثير غيري زيارتها . وفي هذه الممالك جميعاً وجدت من آثار كتبي وشعري ما سرني . فهذه الآثار خير ما يكافأ به شاعر

وقد اشار صديقي بان اكون واسطة تفاهم بين مدنية الهند ومدنية مصر . واني قابل هذه الوساطة لنشر فكرة اعتقدها سبيل السلام . فقد امرنت الامم في الاثرة والانانية وفي العصبية الجنسية التي يتمسك بها فريق كبير من اهل الامم المتحضرة على ان هذه العصبية اكبر مظاهر ضعف المدنية الحاضرة فهي التي تجر الامم الى التطاحن لنيل غايتها وهي التي تثير بينها حروباً مهلكة ما كانت لتقع لولا هذا التعصب وتلك الاثرة . وما اشك مطلقاً في انه قد وجدت امم من قبل و بادت . افنتها الحروب في سبيل اغراضها . وما تزال الآن في مجاهل افريقيا امم تسير في طريق الفناء لاخذها في حياتها بهذه الخطة ولئن كان هذا ممكناً تصوره يوم كانت الحدود الجغرافية حقيقة واقعة تفصل بين الامم وتجعل كل

امة تعتز بكيانها و بجنسها وتجعل من لون اصحابها وسيلة لحرب من كانوا من لون آخر فلم يبق لهذا التصور اليوم محل بعد ان اصبحت الحدود الطبيعية لا حقيقة لها لاسباب اهمها تقدم المواصلات والتمازج العقلي بين الامم . لذلك يجب ان تزول الاثرة وان يزول التعصب للجنس والتعصب للون و يجب ان يشعر العالم ان هنالك وحدة روحية تربط امم المختلفة . ومن حسن الحظ اني رأيت في اثناء سياحاتي في البلدان المختلفة كثيرين من كبار المفكرين متفقين واياي في الرأي واثقين كما اثق بان سيأتي اليوم الذي تسود فيه هذه الفكرة الشعوب جميعاً . بل لم يقف الاقتناع عند المفكرين الكبار، فقد احتفل بي في بلاد عدة كثير من البسطاء لانهم احسوا في كتاباتي الدعوة لهذه الوحدة الروحية التي تصبو اليها نفوسهم ، والوسيلة لقهر الانانية ولزوال التعصب الجنسي ليست هي الحديد والنار وانما في انتشار الافكار السليمة بين الشعوب وسعيها جميعاً لادراك الحقيقة . فهذه الحقيقة ، الحقيقة المجردة ، الحقيقة المطلقة يجب ان تكون غاية الغايات لكل شاعر ولكل مفكر ولكل فيلسوف وغاية الغايات للانسان الكامل . و يوم يأتي الوقت الذي يعمل فيه كل لمعرفة الحقيقة فاذا رآها لم يتردد في اعلانها يومئذ يكون الانسان قد وصل الى الكمال . وفي هذا اليوم يتم السلام على الارض . نعم . فالسلام لن يترتب على عمل صناعي مطلقاً كالاتفاقات الدولية وما اليها . انما الوسيلة الوحيدة لتحقيقه هي الوحدة الروحية واحس ان هذه الوحدة بدأ في العالم ظهورها

وختاماً لهذا الحديث ارتل حكمة عالية من أحد كتبنا المقدسة

وهنا اطرق ورتل حكمة بصوت عذب جداً يصل الى القلب بلغته الاصلية اياتا نقلها الى الانكليزية ومعناها على التقريب

« رب الارباب والله البشر جميعاً تنزهت عن كل لون وجنس

يا مهيمناً على جميع الامم وان اختلفت الوانها

وحيد بين قلوبها والهمها تبادل المحبة

وايدها بروح الحق والعدل»

وكان لاقواله السديدة ومعانيه البليغة وصوته العذب وقع عظيم في النفوس وفي اليوم التالي برح العاصمة الى بور سعيد ليسافر منها الى الهند فودعه على المحطة جمهور كبير من عارفي فضله وادبه